الطفولة بين نقص التوجيه وشبح العقاب

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ١٩/١٠/٢٠٠٧م

في عالمنا الثالث كما يسمونه نمارس العملية التربوية معكوسة، هكذا بحسب ما تعودناه لا بحسب أصولنا ومنطلقاتنا التي وجهنا إليها ربُّنا، وأعني بذلك أننا نتوجه إلى النتائج قبل المقدمات، ونتحدث عن العقوبات قبل المحفزات، وهذه معادلة مقلوبة، حتى إن الذين يتحدثون عن الإمارة أو الخلافة أو دولة الإسلام... أول ما يطرحون قانون العقوبات، ويفكرون أول ما يفكرون وهم يستحضرون صورة دولة الإسلام أو إمارته من خلال قطع يد السارق وتطبيق الحد على الزاني وشارب الخمر...

وما هكذا ينشَّأ المجتمع الفاضل، وما هكذا يوصل بالإنسان إلى سموه وفضيلته، فآخر شيء يذكر في الدعوة أو في التربية العقوبات، لكن يسبق ذلك زمن طويل يُدرّب فيه الإنسان على القيم والأخلاق...

يُبدأ في تربية الإنسان بترسيخ الإيمان والعقيدة في قلبه، فإذا ترسّخت العقيدة وقوي الإيمان في باطنه أنتج الأخلاق، فيستقيم السلوك وتنشأ الروضة والبستان المزهر والمثمر، وعندها يُحتاج إلى بعض التقليم، ليأتي في هذه المرحلة حديثٌ عن العقوبات.

الذي دعاني إلى هذا الحديث ما رأيناه في مستوى التعليم في بلدنا هذا، حينما يُعمَّم قانونٌ من وزارة التربية يعتبر علامة السلوك في المدرسة علامةً مرسِّبة.

قلت: إن هذا يدل على استشعار الظاهرة، فالانحراف السلوكيّ إذًا في مدارسنا ومنشآتنا التعليمية وصل إلى درجةٍ أصبح من الضروري أن يقال شيءٌ أو يُفعل.

هذا يدل على أن انحرافًا سلوكيًّا أصبح ظاهرة، وذلك على مستوى تفشي العنف بين الأطفال، وهذا ما هو إلا انعكاسٌ ومرآةٌ لما يعيشه طفلنا في بيئة تُغذَّى بألعاب العنف، وبأفلام العنف، والمنطقة تعيش حالة اضطراب، واللعبة الأكثر انتشارًا بين الأطفال، وأنواع الأسلحة المختلفة...

إذًا: لابد أن تنشأ ظاهرة العنف.

والتحلل الأخلاقيّ الذي يغذّى أيضًا من خلال ما يصل إليه من المنافذ الإعلامية المختلفة، أو من خلال التحلل الخلقي العام... وصل الأمر إلى الطفل، وبوصول الانحراف إلى الطفل نرى أن مجتمعنا أصبح على شفا جُرُفٍ هار، لأن الطفولة البريئة الطاهرة النقية بدأت تتلوث.

هذا القانون إذًا هو جرس تنبيه، لكن أتعجب: حينما نجعل جرس التنبيه هذا مبتدئًا بقانون العقوبات، فهذا يعني أننا لا نريد أن ننتج تغييرًا حقيقيًّا، فحينما نبدأ في تغييرنا بقانون العقوبات، وحين نريد للطفل الذي انحرف أن يبقى متخلفًا في صفه هذا، دون أن نوجه من خلال خطة تربوية واضحة عامة توجيهًا سليمًا لهذا الطفل، إذًا فنحن نعيش غيابًا تربويًّا.

نحن أمة وجّه ربُّنا أطفالها وشبابها توجيهًا فيه التدرج، وفيه التنبيه إلى المنطلقات، والمحفزات، والأخلاق... لكننا حينما نبتعد عن منطلقاتنا وعن جذورنا، أو نخجل من هويتنا، أو من ثقافتنا، أو نهرب من جلدنا... عند ذلك لن نجد من المحفزات ما يكفي، وسنتحدث كلامًا عامًّا، وسنبدأ بالعقوبات قبل أن نلاحظ المقدمات.

الطفولة هي أمل المستقبل، فإذا كنّا نرعاها ونحسن رعايتها فإن هذا يعني وجود المستقبل، وحينما ننظر إليها من خلال قانون العقوبات دون أن نعطي المقدمات حقها، فعند ذلك نكون كمن يتقدم إلى اللا مستقبل.

اقرؤوا في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] ولماذا لم يقل: وكفلها عبدًا صالحًا معلمًا؟ ولماذا أعلن الهوية وقال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؟

لأن زكريا شخصيةٌ معصومةٌ مرسلةٌ ذاتُ أوصاف عالية، لهذا أراد أن يبين لنا أن الذي يكفل التربية، وأن الذي يعتني بالطفولة ينبغي أن تكون هويته واضحة.

فإذا أردت أن تسأل عن زكريا فاقرأ في القرآن قصة زكريا، واقرأ وقوفه في المحراب، واقرأ عن مناجاته لربه، واقرأ عن حلمه وعلمه، فإذا أردت أن تفهم من هو زكريا الكفيل للطفولة، والكافل لرعايتها، فاقرأ في القرآن لتعرف هوية ذلك المربي.

إذًا: ما كل شخص يمكن أن يكون كافلاً أو معلمًا أو مربيًا... فلابد من عنايةٍ فائقة بالمربي، ولابد من عناية فائقة بالمعلم، لنعطي المعلم هوية واضحة، وهي أول المقدمات، وهي أول ما ينبغي أن يكون في تلك العملية التربوية.

وبعد ذلك يصف الله سبحانه وتعالى الطفولة فيسميها ضعفًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]

إنه سبحانه وتعالى يوجهنا بهذا إلى أن الطفولة عالم ضعف، وعالم الضعف هذا ينبغي أن يعامل بعناية فائقة، إنه كالزجاجة التي تتكسر، فينبغي أن نضعها في مكانها اللائق بعيدًا عن المؤثرات المدمرة، وبعيدًا عما يمكن أن ينسفها أو يستأصل بنيتها و تكوينها اللطيف، وينبغي أن يُنظر إليها على أنها كيان رفيع ينبغي أن يعامل معاملة خاصة.

إن وصف القرآن للطفولة بالضعف يطلب قوةً داعمة لها، ولا يطلب قوة محطمة لها.

وبعد ذلك نقرأ في القرآن الكريم وصف الطفولة بالعلم والحلم، وهذا يستوقف القارئ للقرآن، فحينما وصف الله سبحانه وتعالى سيدنا إسماعيل حين كان غلامًا وصفه بالحلم، وحينما وصف أخاه سيدنا إسحاق وصفه بالعلم.

اقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٢] فبين أن الغلام المقصود في هذه الآية إنما هو سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

وهذا يعني أن الطفولة يمكن أن توصف بالحلم، وهذه قيمةٌ ينبغي أن تلاحظ، فإما أن يكون عالم الطفولة ضَجَرًا واستعجالاً... أو أن يكون موصوفًا بالحلم.

إذًا: يمكن لنا أن نجعل حلم الطفولة هدفًا لنا تربويًّا.

ونقرأ وصف أخيه إسحاق: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ، قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٢-٥٣]، وفي سورة الذاريات: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٧-٢٨] وكان المقصود سيدنا إسحاق عليه الصلاة والسلام.

إذًا: الطفولة توصف بالعلم، وتوصف بالحلم.

وحينما نريد رعاية الطفولة، وحينما نريد أن نقدم طفولة متميزة، ينبغي أن نضع خطواتٍ تربويةً لنصل إلى طفولة عالِمة، وينبغي أن نضع خطوات تربوية لنصل إلى طفولة حليمة بعيدة عن الضجر، وبعيدة عن القلق، وبعيدة عن كل الانفعالات المذمومة التي يمكن أن يقع فيها الطفل.

واقرؤوا ذلك النص الجامع في القرآن الذي يعطي الخطوات والمقدمات لرعاية الطفولة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فجعل المنطلق في التربية هو الإيمان، فحينما يرسّخ الإيمان في أعماق ذلك الطفل، وحين نعتني في توجيه ذلك الطفل في مدارسنا بترسيخ الإيمان، ونجعله أول خطوة وأول هدف، أي أن يكون ترسيخُ الإيمان بالله تبارك وتعالى الهدف الأول في رعايتنا للطفولة، عندها نستطيع أن نخطو خطوة ثانية:

- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ حينما نتحدث للطفل عن صلته بأمه وأبيه من خلال أسلوب تربويّ يدغدغ عاطفته، وينفذ إلى باطنه، ونحكي له تلك القصة الجميلة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاء شاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبي أخذ مالي يا رسول الله، فقال: (أحضر أباك)، فلما أحضر أباه، وقبل أن يصل نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: اطلب من أبيه أن يُحدِّثك بما كان يُحدِّث به نفسه، بكلامٍ لم تتلفظ به شفتاه لكنه جال في باطنه، قال: يا رسول الله، والله ما يزال الله يزيدنا بك يقينًا، لقد قلتُ شيئًا في نفسي ما سمعته أذناي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قُل وأنا أسمع)، فقال: قلت: **غذوتُك مولودًا وعِلتُك يافعًا**، أي أنا الذي اعتنيت بك في صغرك، وسهرت من أجل أن تنام.

غـــذوتك مولـــودًا وعِلتُـــك يافعًـــا ... تُعَـــلُّ بمـــا أُدني إليـــك وتنـــهلُ
إذا ليلـــةٌ نابتـــك بالشـــكو لم أبِـــتْ ... لشـــكواك إلا ســـاهرًا أتململـــل
كأني أنـــا المطـــروقُ دونـــك بالـــذي ... طُرقـــتَ بـــه دوني وعـــينيَ تهمـــل
تخاف الـــردى نفســـي عليـــك وإنهـــا ... لَـــتعلم أن المـــوت حـــتمٌ مؤجَّـــل
فلمـــا بلغـــتَ الســـن والغايـــةَ الـــتي ... إليها مدى مـــا كنـــتُ فيـــك أؤمـــل
جعلتَ جزائي منـــك جبـــهًا وغلظـــة ... كأنـــك أنـــت المـــنعم المتفضـــل
فليتـــك إذ لم تـــرعَ حـــقَّ أبـــوتي ... فعلـــتَ كمـــا الجـــار المجـــاور يفعـــل
وسميـــتني باســـم المفنَّـــد رأيُـــه ... وفي رأيك التفنيـــد لـــو كنـــت تعقـــل
تـــراه مُعِـــدًّا للخـــلاف كأنـــه ... بـــردٍّ علـــى أهـــل الصـــواب موكَّـــلُ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بمنكب ابنه وقال: (اذهب فأنت ومالُك لأبيك).

وكانت والدتي تُحدِّثني أن هذه الأبيات كانت من مقرراتها المدرسية، فلماذا غابت مثل هذه الأبيات؟

فالجيل الذي صار عمره في الثمانين كان يحفظ هذه الأبيات، فأين مثل هذه الأبيات في مناهجنا الدراسية؟

فحينما نتحدّث عن: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ فندخل إلى أعماقه، ونُقدّم إليه مادةً يمكن من خلالها أن يستشعر قيمةً خُلُقية رفيعة.

- ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ إنه ترتيب الأولويات، فالإيمان بالله، والطاعة لله أولاً، بأن نبيّن له أن طاعة الخالق مُقدّمة على طاعة المخلوق حين يتعارضان.

- ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ القدوة.

- ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الآخرة، والجنة، والثواب...

- ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ المراقبة لله تبارك وتعالى، وذلك حين يُغذّى الطفل بها.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وهكذا تكون صورة التصوّر عن خالقه حاضرة: إنه لطيفٌ خبير.

حين يكون التصوّر عن صفات الله سبحانه تصورًا جماليًّا، فلا يتصور خالقه مُعاقِبًا بمقدار ما يعلم أنه لطيفٌ خبيرٌ عليمٌ بأحواله...

- ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ التركيز على قيمة الصلاة، التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والتي أصبحت شبه غائبة إلا في مادة التربية الإسلامية، فينبغي أن تكون جزءًا أساسيًّا، بأن يفهم الطالب أن هذه الصلاة هي سرُّ تقويمه، وذلك حين يقف أستاذه أمامه فيصلي فيقتدي الطالب به.

نعم، هذا ليس خاصًّا بمدارسنا الشرعية، فنحن أمة رسالتها الخالدة هي الإسلام... نحن أمة لا يمكن لنا أن تتقدّم في قيمها ولا في أخلاقها ولا في مبادئها... إلا حينما تنطلق من الصلاة.

في يوم من الأيام دعا مصطفى كمال أتاتورك الداعيةَ النورسيّ رحمة الله عليه، ليُلقيَ بيانًا في مجلس الشعب في البرلمان التركي، وذلك عند تأسيس الدولة التركية، فوقف الداعية النورسي رحمة الله عليه ساعة يتكلم فيها عن قيمة الصلاة، فقال له مصطفى كمال: دعوتُك لتتحدث عن مستقبل أمة، وعن بناء الدولة، فأمضيتَ ساعة من الوقت تتحدث عن الصلاة؟ قال: حينما تُضبَط الصلاة، وحين يكون هؤلاء البرلمانيون أصحاب صلاة، لا أخاف على تركيا، لأن الصلاة مُنطلَق، فإذا كنت مقطوعًا عن صلتك بربك ما قيمتك؟

إذا كنت موصولاً بالعباد ومقطوعًا عن ربهم فما قيمتك؟

وحين تغيب الصلاة ما قيمتنا نحن كأمة إسلامية؟ وما قيمة الذي لا يعتني بالصلاة؟ وما قيمة منشأة تربوية لا توجّه إلى الصلاة؟

والصلاة هي المفتاح، فنحن نستمد القوة من القوي، ونستمد العِلم من العليم، ونستمد كل معاني حضارتنا من خالقها، ومن مُنشئها، ومن مُوجِّهها سبحانه وتعالى...

- ﴿يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾ بالله عليكم لو كانت هذه القيم حاضرة، هل نرى أفلام الفيديو الخليعة موجودة في مدارسنا؟ مستحيل.

علامة السلوك في مدارسنا لا تُغيّر مدارسنا، لكنها تُعطي مُشعِرًا أننا في حالة خطرة.

نعم، لكن أين التوجيه؟ أين التغيير؟

سنبقى نُقلِّد غيرنا في الانحلال ونبتعد عنهم في مقدمات الحضارة، وسنبقى نخجل من هويتنا، ونخجل من أن نقول: نحن مسلمون، ونخجل من أن نقول: نحن الأمة التي ما قامت حضارتها إلا بهذه القيم، وسنبقى نصيح صياحًا لا مضمون له، ونهمل بناءنا التربوي الذي من خلاله ارتفع صرحُ حضارتنا.

- ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ الصبر الذي يُنتج الطفولة الحليمة.

- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ لا تتكبّر على الناس، ولا تكن فخورًا بنِعَم الله عليك، بل اشكر نعمة الله.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

نعم، هكذا وجّه القرآن بهذا التوجيه الكبير، لقد وجّه إلى رعاية الطفولة رعاية مالية، وذلك حين نقرأ في القرآن: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]

إن القرآن لا يتحدث بلغة اللاهوت المجردة عن المادة، والمجردة عن القيمة المالية والمادية.

لا.. إنه يتحدث عن قيمة المال حين تكون داعمةً لهذه الطفولة.

إذًا: نحن نملك رصيدًا كبيرًا في مقومات التربية، وفي مقومات البناء، لكن متى سنستعملها؟ ومتى سنسمع قانونًا يُوجَّه فيه كلُّ من يمارس التربية أن اعتمدوا هذا المحور التربوي، الذي من خلاله يُنشّأ أطفالنا وشبابنا، انطلاقًا من الإيمان وانتهاءً من السلوك والاستقامة على مبادئ السلوك السليم؟

الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس، ولابد في مرحلة تغييرنا الحضاري هذه أن نلاحظ ما نحتاج إليه كمجتمع، وأن نلاحظ ما نحتاج إليه كتجمّعٍ إنسانيٍّ يطلب عودة كرامته، ويطلب نهوضه، ويطلب أن يصل إلى مرحلة يستطيع من خلالها أن يقطع يد العدو التي تمتد لتُخرِّب في حضارته المادية والمعنوية.

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.